حول قضية النظم

د/ عبد الحميد مصطفى

المدرس بقسم البلاغة والنقد

(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :
فهذا بحث يتناول بعض جوانب قضية النظم ؛ تلك القضية التى انشغلت بها الأوساط البلاغية والنقدية منذ نشأ البحث البلاغى إلى اليوم ، ولا عجب فى ذلك فقضية النظم هى قضية البلاغة ، فإذا كانت قد أخذت قسطاً كبيراً من كلام الباحثين والدارسين فى علوم البلاغة فهذا هو حقها باعتبارها عمود البلاغة وأساسها وتكاثر القول فيها لا يعنى أنه لم يعد هناك مجال للحديث عنها فذلك معناه إغلاق الباب أمام أى فكر أو منهج جديد ومعناه أنا قد أخذنا بالمبدأ القائل : ما ترك الأول للآخر شيئاً . وما يترتب على ذلك من جمود فى الأفكار وتوقف عن البحث والتجديد والتطوير ، ولسنا من أنصار هذا المذهب ، أو من الداعين إليه . فمجال البحث مفتوح والقضية الواحدة قد يتناولها أكثر من باحث فهذا يلبسها ثوباً جديداً ، وذلك يكمل قصور الأول ، وذاك يبرز بعض جوانبها الخفية .

وما من شك فى أن قضية النظم من القضايا التى ستظل مجالا للحديث ما بقى البحث البلاغى . فما يزال الكثير من لطائفها وأسرارها خافياً كما أن بعض جوانبها ستبقى دائما مثار إغراء للباحثين . تجذبهم إليها فى محاولة للتجديد

أو إضافة المزيد ، وكلما كثر القول فيها تفتح للبحث والدرس فيها أبواب تسع الداخلين وإن كثروا وإذا كنت قد اخترت هذه القضية موضوعاً لهذا البحث فإنى أرجو الله أن أوفق فيما هدفت إليه وهو إبراز بعض جوانبها ومدى صلتها بالمباحث البلاغية .

ربادىء بدء فإنى أجد فى خاطرى الآن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ولعل هذا القول قد راود خاطرى لأن له صدى فى عالم آخر هو أخص خصائص عالم الأنام ، إنه عالم الكلام .

عالم الكلام كعالم الأنام ، وإذا كان تجمع الناس وتآلفهم وائتلافهم إنما هو أثر من تآلف الأرواح فان محور التآلف والتوافق بين أفراد وأسر عالم الكلمات إنما هو التآخى بين أرواح وأسر عالم الكلام ، أعنى المعانى والأغراض ، ولذا صرح البلاغيون والنقاد قديماً بأن الألفاظ أجساد والمعانى أرواح ، وارتباط المعنى باللفظ كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للكلام وعيباً فى الأسلوب كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما شاكله من غير أن تذهب الروح .

ومثله إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذى يعرض الأجسام من المرض بمرض الأرواح ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه على غير الواجب فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ موانا لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى مرأى العين غير أنه لا ينتفع به ، ومثله إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحاً فى غير جسم البتة (١) .

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/٨٠

فنظم الكلمات وحسن تأليفها عمل دقيق يحتاج إلى براعة وفن ، فعليه تتوقف بلاغة الأديب وعظمة الشاعر وبراعة الخطيب وبه يحكم بالسبق لشاعر على آخر وبالتفوق لمناظر على من يناظره ، ولا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا أقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فناً من المعرفة فى ذوق الكلام هم به أفراد كما يقول الإمام عبد القاهر .

من أجل ذلك أصبحت كلمة « النظم » أكثر الكلمات دورانا فى كتب البلاغيين وعلى ألسنة الدارسين والباحثين فى هذا المجال ، ولم لا والبلاغة تتوقف عليها . فإذا أحسن الأديب نظم كلماته بحيث يضع كل كلمة فى المكان الملائم لها لتؤدى المعنى الذى سبقت له والغرض الذى قيلت من أجله حكمنا له بالسبق والفضل .

وإذا كانت الكلمة هى اللبنة الأولى فى بناء النظم وجب الاهتمام بها . الاهتمام باختيارها ونقاوتها وتحرى الدقة فيها... ، وقد يقال إن الألفاظ موجودة ومعروفة وأن الاختيار بالنسبة لها أمر سهل لا يحتاج إلى دقة ولتصحيح هذا المفهوم الخاطىء نقول :

إن اللغة العربية ثرية بالألفاظ المتواردة والمترادفة ، وكثيرا ما يقع فى ذهن البعض أن هذه الألفاظ يقوم بعضها مقام بعض وتؤدى كل منهما مؤدى نظيرتها ، وليس ذلك صحيحاً ، فالكلمات المترادفة قد تختلف من حيث دلالاتها الدقيقة على المعانى ، وإن كانت فى المجمل بمعنى واحد ، والبليغ إنما ينظر إلى دقة الدلالة فى أداء اللفظ لمعناه ، وبالاضافة إلى ذلك فالكلمة تتكون من حروف وأصوات وقد يكون الانسجام الصوتى بين الكلمات بارزا ومتفقا مع الانسجام الروحى بينها فإذا غيرت كلمة بما يرادفها وجدت اللفظ قد نبا عن موضعه وظهر نشازا بين أخوته ... ، فكلمة « النذر » جمع نذير ، على الرغم من أنه قد يتوهم فيها حال انفرادها شىء من الثقل

لتوالى ضمتين على حرفين متتاليين « النون والذال » فإنها حين تصغى إليها فى قوله تعالى « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر » ، « ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر » ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت ثمود بالنذر » تجدها متمكنة فى موضعها لها من الروعة والخفة ما لا يمكن أن يكون لما يرادفها من الألفاظ وليس ذلك لمجىء فواصل السورة على حرف الراء فحسب ولكن لأن المقام والتركيب يتطلبها ولا يليق بغيرها (١) .

والمعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لايجزى واحد منها فى موضعه عن الآخر إن أريد به شرط الفصاحة ، لأن لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذى هو فيه والذى تساق له الجملة وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه .

ومن ذلك مثلا لفظ « المطر » فهو يرادف لفظ « الغيث » وقد يظن أن كلا منهما يمكن أن يقوم مقام الآخر ولا ينبو عنه السياق والمقام ، ولكن التأمل يدفع ذلك .

فقولنا مثلا : نزل علينا الغيث ، لا يتساوى مع قولنا : نزل علينا المطر . وأن فهم غير الحصيف اتفاق العطاء فى كل ...

ولإيضاح ذلك نقول : إن لفظ « المطر » يذكر عند حدوث الضرر والانتقام .

ولفظ الغيث يذكر عند حدوث النفع والفائدة فلكل كلمة موضع ونظم تذكر فيه.

ويتجلى ذلك حين تتأمل التعبير القرآنى صاحب الدرجة العليا التى لا يشرئب

---

(١) انظر إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٨

إليها عنق ، فنجده لا يستعمل لفظ « المطر » إلا فى مقام العقاب والانتقام .

قال تعالى : « وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » الأعراف ٨٢

« وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين » الشعراء ١٧٣

وهكذا إذا تتبعت هذه المادة فى القرآن تأكدت من حقيقة ذلك وحتى قوله تعالى « ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر » فقد اقترن به ما يدل على الضر والسوء .

كما نجده يستخدم لفظ الغيث أو الماء إذا أراد النفع والامتنان والفائدة .

قال تعالى « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا » الشورى ٢٨

وقال « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما الأرحام » لقمان ٣٤

وقال « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » النبأ ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا » الأنعام ٩٩

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات » الأعراف ٥٧

ومن ذلك أيضا لفظ « الجوع » ولفظ « السغب » فالناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع عند الإحساس بحاجتهم إلى الطعام مع أن القرآن لم يذكر لفظ الجوع إلا فى موضع الابتلاء أو الامتنان .

قال تعالى « ولنبلوتكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » البقرة ١٥٢ . وقال (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) قريش ٤ وقال « إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى » طه ١١٨ .

وقد تنبه لشيء كثير من هذا الإمام الخطابى فذكر أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى بحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان المراد من الكلام . كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والقعود والجلوس . وعمود البلاغة هو وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص به الذى إذا ما بدل مكانه بغيره جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون به فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذى يكون منه سقوط البلاغة(١)

كما أشار الباقلانى إلى ذلك أيضا وبين أن وضع الألفاظ فى موضعها أمر صعب وأن رجالها قليل وكيف لا يكون ذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح فى موضع الفجر يحسن فى كل كلام وليس كذلك فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى موضع وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى .(٢)

تأمل قوله تعالى « والفجر وليال العشر » وقوله تعالى « والصبح إذا تنفس » وضع كلا من لفظتى الفجر والصبح مكان الأخرى ثم أسبر حالك هل تجد حاليك فيهما على سواء لا أشك فى أنك ستستشعر الجمال والجلال الذى عليه النظم القرآنى .

وإذا كنت قد رأيت اختلال النظم حين تقوم باستبدال كلمة بأخرى يظن أنها ردف لها وصنو ، فانا نعرض عليك أمرا آخر لا يعتمد على استبدال الألفاظ وإنما على غياب كلمة أو أداة أو حرف من النظم فترى الوجوم والأسى والبؤس الذى يعترى النظم . انظر قوله تعالى « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » « يس ٢٩ » واحذف منه الكاف وقل . حتى عاد عرجونا قديما . لا شك أنك ستشعر بالفارق بين الكلامين أى بين النظم القرآنى والأسلوب المساوى له فالنظم فى الآية القرآنية يمنحك جمالا

---

(١) بيان إعجاز القرآن للرمانى ٢٩

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ١٨٤

أنت فاقده فى سواه .. فجمال الصياغة وحسن الإيقاع والنغم الساحر متوقف على وجود الكاف .

وذلك لأن القصد من التشبيه هنا المشابهة من بعض الوجوه دون المماثلة التامة ، كما أن دعوى المبالغة فى التشبيه التى يعطيها غياب الكاف غير مرادة هنا .

فقول القائل : الأصدقاء كالنار قليلها مناح وكثيرها بوار ، أحسن نظما وأنسب للمقام من أن نقول « الأصدقاء نار » لأن المبالغة فى المماثلة غير مرادة للقائل ، فليس غرضه أن يقرر أنهم نار فى الإحراق وإنما غرضه المشابهة من وجه معين وهو نفع القليل وضرر الكثير . فوجود الكاف فى مثل تلك الأمثلة ضرورى لإصلاح النظم ودقة المشابهة ورعاية المقام .

وإذا كانت الكاف سبباً لإصلاح النظم فيما سبق من الأمثلة ، فإنا نجدها فى موطن آخر إذا دخلت نظم الكلام أفسدته وكانت سبباً فى رداءته تأمل مثلا قول المتنبى :

بدت قمراً ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورنت غزالا

فلو قلت : بدت كقمر ، ومالت كخوط بان ، وفاحت كعنبر ، ورنت كغزال أفسدت الشعر وخرجت كما يقول الإمام عبد القاهر إلى الغثاثة وإلى شىء يعزل البلاغة عن سلطانها ويخفض من شأنها ويصد أوجهنا عن محاسنها ويسد باب المعرفة بها وبلطائفها .

وليست الكاف فريدة فى هذا المجال فمثلها الكثير من الحروف نجدها تأتى لتأدية مهام وخصائص فى النظم لا تكون تلك الخصائص عند ترك الحرف وإن بدا لغير البليغ أن وجود الحرف وتركه سواء .

تأمل مثلا قول الله تعالى « فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا »

ثم لاحظ الفاء فى قوله : فلا يخاف ، وقارن بين هـذا وبين قولك « فمن يؤمن ربه لا يخف بخسا ولا رهقا » فقد يبـــدو للوهلة الأولى أن المعنى لا يختلف فى وجود الفاء وعدمها لـكن النظرة المعمقة ترينا أن وجود الفاء يجعل الـكلام فى تقدير مبتدأ وخبر أى : فهو لا يخاف .

وفى رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبـــله فائدة جليلة وهى الدلالة على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غـيره ، فوجود الفـاء أعلى للـكلام خصوصية زائدة هى اختصاص عـدم الخوف بالمؤمن وهى لا تكون عند عدم الفاء لأن الـكلام والحالة هذه لايحتاج إلى تقدير مبتدأ .

وإذا كانت الفاء قد أضافت إلى نظم الـكلام مزية فى مثل هذا المقام فإنها فى مقامات أخرى تتراجع أمام حـرف « إن » وتفضل « إن » عليها .

قال تعـالى « يا أيها الناس اتقوا ربـكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » (الحج - ١) « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » (التوبه ١٠٣) « ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » هود ٣٧ .

لا يخفى أنه لو جىء بالفاء مـكان إن فى هذه الآيات ما وجد ذلك الترابط الوثيق الذى تراه بين ما قبلها وما بعـدها فى كل آية ، ولا تلك الألفة التى تجمع بينهما ... فوجود « إن » بين الجملتين ربط بينهما وجعل الثانية تتحد بالأولى حتى كأن الـكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا وسبكا فى قالب واحد .

وقد ذكر الإمام عبد القاهر السر فى فضل إن عـلى الفـاء فى مثل تلك الآيات بأنها تريك الـكلام مستأنفاً غير مستأنف مقطوعاً موصولا معا بخلاف الفاء لأنها صريحة فى التعليل ولا يكون للـكلام معها تلك الدقة وهذا اللطف

وما دمنا فى مجال الحديث عن الأدوات وتأثيرها فى النظم فينبغى أن نعلم

أن معنى الكلام وغرضه قد يختلف مع أداتين معناهما واحد ويؤديان عملا واحدا كالهمزة ، « وهل » فهما للاستفهام ، وإذا كانت « هل » لطلب التصديق أى للسؤال عن مضمون الجملة ، فإن الهمزة أيضاً قد تأتى لهذا المعنى بعينه وعلى الرغم من ذلك فإنا نجد نظم الكلام أو غرضه فى كثير من المقامات يتطلب « الهمزة » دون « هل »

يقول الله تعالى « أتقولون على الله مالا تعلمون » البقرة ٨٠ « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » (البقرة ٤٤) .

الغرض من الاستفهام فى هذين المثالين إنكار الفعل الواقع بعد الهمزة إنكار توبيخ . وهل لا تقع فى هذا الموقع لأنها تخصص المضارع للاستقبال ، وإنكار التوبيخ لا يكون إلا فى الحال إذ لا معنى للتوبيخ على فعل سيقع ، فلا يكون معنى حينئذ لدخول « هل » فلو قلت : هل تقولون على الله ما لا تعلمون ، ؟ وهل تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ؟ كان كلاما فاسدا ، وخلفاً من القول ..

وإذا كان وجود حرف من الحروف قد يؤدى إلى إصلاح النظم أو فساده فإن ذلك ينطبق بلا شك على الألفاظ والكلمات فإن وجود لفظ أو عدمه قد يكون سبباً لاستقامة النظم وتآلفه أو لانحلال أوصاله وتفككه .

وقد نبه الإمام عبدالقاهر إلى شىء يشبه هذا أثناء حديثه عن المجاز الحكمى حيث ذكر أنه ليس كل شىء تستطيع أن تتخاطى فيه هذا المجاز العقلى بسهولة بل تجدك فى كثير من الأمر تحتاج إلى أن تهيىء الشىء وتصلحه لذلك بشىء تتوخاه فى النظم . وإن أردت مثالا لذلك فانظر إلى قول الشاعر فى وصف جمل ...

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

فلولا أنه قال « تجوب له » فعلق « له » بتجوب ، لما صلحت العين لأن يسند تجوب إليها كما ذكر كلمة « عين » ليتسق له نظمه ولو قال : تجوب له الظلماء عينه لم يكن له هذا الموقع ولاضطرب عليه معناه وانقطع السلك من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به الآن (١)

وبذلك يكون على الأديب حين يريد سمو إبداعه أن يكون دقيقا فى إختياره اللفظ المناسب والمكان المناسب له حتى ينسجم ويتآلف مع مايجاوره، فيعزف مايشنف الأذن ويشمل العقل ويطرب القلب .

وتلك هى إحدى الدعائم التى يرتكز عليها الإعجاز القرآنى ، فقد بلغ القرآن فى ذلك مبلغاً لايجارى ولايقارب فدق استخدام ألفاظه وأقامها فى منازلها ومناخها الملائم فأتت أكلها كل حين بإذن ربها ...

وقد ذكر أن شعراء العرب الفحول كانوا يجودون قصائدهم ينظمون القصيدة فى شهر ثم يجودونها فى ثلاثة أشهر ينظر الشاعر فى قصيدته فيضع لفظا مكان لفظ ويقدم كلمة على أخرى يفعل ذلك حتى يلتئم كلامه ويتوافق ويخرج شعره إلى الناس فى أحسن نظم وأبهى حلة ولولا ذلك لكان الكثير من شعرهم عرضة للنقد والاستهجان ، وهذا ما كان يحدث بالفعل إذا خرج الشعر فى ثوب غير ملتئم النسج ...

نقد أحد حذاق الكتاب البحترى فى قوله :

لعمر الغوانى يوم صحراء أربد لقد هيجت وجدا على ذى توجد

فذكر أنه لو قال على « متوجد » لكان أسهل وأسلس وأحسن

كما وجه إلى امرئ القيس نقد مشابه لذلك فى قوله :

كأنى لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

---

(١) دلائل الإعجاز - عبد القاهر ص ١٩٧

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال

فقالوا لو وضع مصراع كل بيت من البيتين فى موضع الآخر لكان أحسن وأدخل فى استواء النسج فكان يروى هكذا :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للـــذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

فركوب الجواد وذكر كرور الخيل من واد واحد ، وشرب الخـــر وتبطن الكواعب من واد آخر متحد فاقتران كل بصنوه أوفر عطاء وأمتن نسجا وأبهى فى رأى العين والعقل .

وهو رأى جدير بالاعتبار وإن كان بعضهم قد حاول الدفاع عن امرئ القيس بأن الذى جاء به هو الصحيح لأن العرب تضع الشئ مع خلافه فيقولون الشدة والرخاء ، والبؤس والنعيم وما إلى ذلك ... وهذ وإن كان من حيث هو صحيحا إلا أن له مقاما وموضعا غير مقام كلام امرئ القيس (١) وإذا كان النقاد قد قاموا بالنظر والمقارنة والتعديل فى بيتين متتاليين لشاعر واحد فإن ذوقهم اللماح يقوم بمثل ذلك بين شاعرين كما فعلوا مع ابن هرمة والفرزدق يقول ابن هرمة .

وإنى وتركى ندى الأكرمين وقدحى بكفى زندا شحاحا
كتاركة بيضها بالعـــراء وملبسة بيض أخرى جناحا

ويقول الفرزدق :

وإنك إذ تهجو تميما وترتمى سرابيل قيس أو سحوق العمائم
كمهريق ماء بالفـــلاة وغره سراب أذاعته رياح السمائم

فقالوا كان الأفضل أن يعير ابن هرمة بيته الثانى للفرزدق وأن يعير الفرزدق

---

١ ــ انظر الصناعتين لأبى هلال العسكرى ١٣٨ .

بيته الثانى لابن هرمة فيكون قول ابن هرمة هكذا :

وإنى وتركى نـــدى الأكرمين وقـــدحى بكفى زندا شحاحا
كمهريق ماء بالفلاة وغـــره سراب أذاعتـــه رياح السمائم

وقول الفرزدق :

وإنك إذ تهجو تميما وترتسى سرابيل قيس أو سحوق العمائم
كتاركة بيضها بالعـــراء وملبسه بيض أخرى جناحا

وهو نقد حسن لأنه يجعل التشبيه صحيحا من جميع الوجوه (١)

فينبغى للشاعر إذن أن يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ويقف على حسن تجاورها أو قبحه لتنتظم له معانيه ويتصل كلامه فلا يخرج من المعنى الذى يأخذ فيه حتى يتمه ، وأحسن الشعر ماينظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره ويكون خروج الشاعر من معنى يصفه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفاً حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً واحداً لاتناقض فى معانيها ولا تكلف فى نسجها تقتضى كل كلمة مابعدها ويكون مابعـــدها متعلقا بها مفتقراً إليها فإن كان الشعر على هذا سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهى إليها روايه

وقد كانت قضية النظم هى الأساس الذى اعتمد عليه البلاغيون حين عرفوا البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال والمقام

ولما كان المقام قد يستدعى تقديما أو تأخيراً أوحذفا أو ذكرا أو تأكيدا أو إيجازاً أو إطناباً أو قصراً ، أو وضع كلمة مكان أخرى أدل منها على المطلوب ، وكل ذلك شىء نتوخاه فى النظم ، كان النظم هو التطبيق العملى للبلاغة . فإذا جاء نظم الكلام موافقا لما يقتضيه الحال والمقام كان الكلام

---

١ — انظر المرجع السابق ١٣٩ .

بليغاً ، وإذا جاء النظم مخالفاً لذلك خرج الكلام عن نطاق البلاغة وإن كان صحيحا فى إعرابه وتركيبه .

وقد أدار الإمام عبد القادر كتابه المشهور « دلائل الإعجاز » على نظرية النظم التى تعنى كما قلنا ترتيب الألفاظ والمعانى ترتيبا يتوافق مع الحال والمقام وقد فصل الحديث فيها تفصيلا دقيقا وطبق عليها معظم مباحث علم المعانى وهو العلم الذى يقول عنه البلاغيون إن من يدرس مباحثه ويلم بها يستطيع أن يأتى بكلامه موافقاً لمقتضى الحال .

وذكر عبد القاهر أن العلماء أطبقوا على تعظيم شأن النظم وتفخيم أمره لأنه لافضل للكلام مع عدمه ولاقدر للكلام إذا لم يستقم أمر نظمه فهو القطب الذى عليه المدار والعمود الذى به الاستقلال .

وإذا كان الإمام عبد القاهر يعتبر أن النظم هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم بحيث يضع المتكلم كلامه الوضع الذى يقتضيه علم النحو ويعمل على قوانينه وأصوله ، وأن وصف النظم بالصحة أو الفساد لا يرجع إلا إلى معانى النحو وأحكامه ... أقول إذا كان الإمام يعتبر الأمر كذلك . فإنا لانستطيع أن نوافقه على هذا الإطلاق فهناك أمور وخصائص فوق النحو والإعراب تدخل فى النظم لتعلى من قدره وتوجب له الفضل والمزية فالكلام قد يكون صحيحاً فى إعرابه وتركيبه وبالرغم من ذلك يكون خارجا عن حد البلاغة فقولك مثلا للظالم الذى ينكر ظلمه ويبالغ فى ذلك « أنت ظالم » كلام صحيح الإعراب والتركيب إلا أنه خارج عن حد البلاغة لأن مقام الإنكار يقتضى تأكيد الكلام فيقال له والحال هذه ، إنك لظالم . وقول أبى نواس فى مدح البرامكة .

سلام على الدنيا إذا مافقدتم بنى برمك من راتحين وغادى

كلام فصيح صحيح فى أسلوبه وإعرابه ولكنه خارج عن حدالبلاغة لأنه

خالف مقام المدح لأن المادح يجب أن يتجنب المعانى التى يتطير منها و يستشنع سماعها ولأجل ذلك عيب قول أبي نواس السابق واستحسن قول أشجع السلمى .

لقد أمسى صلاح أبى عـــلى لأهـــل الأرض كلهم صلاحاً
إذا ما الموت أخطأه فلسنا نبال الموت حيث غدا وراحا

فذكر إخطاء الموت إياه وتجاوزه إلى غيره فجاد المعنى وحسن عند المستمع، وقد أساء أبو الوليد أرطاة بن سهية حين أنشد عبد الملك .

رأيت الدهر يأكل كل حى كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقى المنية حين تغدو على نفس ابن آدم من مزيد
واعـــلم أنها ستكر حتى توفى نذرها بأبى الوليـــد

وكان عبد الملك يكنى أبا الوليد فتطير منه ومازال يرى كراهة شعره فى وجهه حتى مات ، وما ذاك إلا لأن الشاعر قد خفى عليه مايجب أن يقال فى مثل هذا المقام . (١)

وإذا كان المقام قد يفرض على الشاعر ألفاظا معينة حتى تتوامم معانيه مع أغراضه فان التقاليد الاجتماعية أيضاً قد تفرض على الشاعر ألفاظا تتفق مع مانقره تلك التقاليد من مفاهيم .

دخل الأقيشر الشاعر على عبد الملك بن مروان وذكر بيت نصيب :

أهيم بدعد ماحييت وإن أمت فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدى

فقال : والله لقد أساء قائل هذا البيت فلما سأله عبد الملك ماذا كان يقول لو كان مكانه . قال : كنت أقول : أو كل بدعد من يهيم بها بعدى » .

فقال له عبد الملك : فأنت والله أسوأ قولا وأقل بصراً حين توكل بها

---

١ — انظر المرجع السابق ١٤٠ — ١٤١

بعدك . فسأل الشاعر الخليفة ، ماذا كان يقول ؟ قال كنت أقول. فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى . فقال من حضر : والله لأنت أجود الثلاثة قولا وأحسنهم معرفة بالشعر يا أمير المؤمنين (١) فالمقام والبيئة والتقاليد وطبائع النفس البشرية كل هـــذه عوامل لها تأثيرها فى اختيار الألفاظ التى تؤدى بمعانيها الغرض الذى يتوافق مع الحال والمقام وإذا لم يراع الشاعر هذه الخصائص نال كلامه الحظ الأدنى من البلاغة على الرغم من موافقته لقواعد النحو وقوانينه . والإمام عبد القاهر نفسه لا ينكر ذلك ولكنه يرجع تلك الخصائص إلى علم النحو . ولنتأمل معا حديث عبد القاهر عن قول البحترى .

بلونا ضرائب من قد نرى فما إن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا (م) ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقـــل فى خلقى سـؤدد سماحاً مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثيبا

يقول الإمام : إذا رأيت هـذه الأبيات قـد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها إهتزازاً فى نفسك فعد فأنظر فى السبب ، واستقص فى النظر . فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قـــدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر وأعاد وكرر وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التى يقتضيها علم النحو فأصاب من ذلك كله ثم لطف موضع صوابه ، وأتى ما أتى يوجب الفضيلة . ألا ترى أن أول شىء يروقك منها قوله : هو المرء أبدت له الحادثات ، ثم قوله : « تنقل فى خلق سؤدد » بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه ، ثم قوله : فكالسيف ، وعطفه بالفاء مع حذف المبتدأ لأن المعنى لا محالة ، فهو كالسيف ثم تكريره الكاف فى قوله « وكالبحر » ثم أن قرن إلى كل

---

١ — انظر النقد العربى القديم داود سلوم ١٧٤

واحد من التشبيهين شرطاً جوابه فيه ، فالمعنى إن جئته صارخا فهو كالسيف، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله : « صارخا . هناك ومستثيباً ههنا . لاترى حسنا تنسبه إلى النظم ليس سببه ما عددت لك(١) » .

ونحن نرى أن ما قاله الإمام فى بيان حسن هذه الأبيات حقاً لا ريب فيه ولكننا نرى أيضاً أن ما ذكره ليس راجعاً إلى النحو ، وإنما هو شىء فوق النحو والإعراب . فالنحو مثلا لا يطلب من الشاعر أن يعرف كلمة « المرء » ولو نكرها الشاعر لكان ذلك جائزاً وصحيحاً فى علم النحو وإنما جاء التعريف لغرض بلاغى يتطلبه المقام ، وهو التخصيص والتفرد الذى يقتضيه مقام المدح ، ولو قال الشاعر : فهو يحميك إن جئته صارخا ويثيبك إن جئته طالباً ما أضير النحو والإعراب فى شىء ، ولكنه أراد بالتشبيه وحذف المشبه أن يبالغ فى حمايته وكرمه ، وذلك أمر اقتضاه المقام ، فكان لزاما على الشاعر أن يراعيه فى نظمه ، وهو أمر كما ترى فوق النحو والإعراب ... ومن أجل ذلك عاد الإمام عبد القاهر ونبه على أن المزية فى النظم لا ترجع إلى معانى النحو فى أنفسها ، وليست بواجبة لها من حيث هى على الاطلاق ولكنها تعرض بسبب المعانى والأغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، فإذا راقك تنكير اللفظ فى موضع فليس معنى ذلك أنه يروق فى كل موضع ، ومثل التنكير التعريف والتأكيد والتقديم والحذف والذكر وسائر الخصائص التى تراعى فى النظم بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذى تريد والغرض الذى ترمى(٢) .

---

(١) دلائل الإعجاز ٧٠ - ٧١

(١) دلائل الإعجاز ٧١

وقد شبه علماء البلاغة عملية النظم بالنقش والرسم فكما أن بعض الصور والنقوش تروقك لحسن تنسيق الألوان والخطوط بحيث يشهد كل من يراها لصاحبها بالحذق والاتقان فهكذا الشاعر والكاتب تشهد له بالبراعة والأستاذية إذا أحسن وضع كل كلمة فى موضعها بحيث تتضافر مع ما قبلها وما بعدها وتتلاءم مع الموضع ككل. وبذلك تتحد أجزاء الكلام ويشتد إرتباط ثان منها بأول بحيث يصبح حال الأديب كحال البانى يضع بيمينه هنا فى حال مايضع بيساره هناك وفى حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين وقد ذكر الإمام عبد القاهر أن ما يجىء من الكلام على هذا الوصف ليس له حد يحصره ولا قانون يحيط به لأنه يجىء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة فمن ذلك مثلا أن تزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء معاً كقول البحترى :

إذا ما نهى الناهى فلج بى الهوى أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

فقد زاوج بين نهى الناهى وإصاختها إلى الواشى بأن رتب على كل منهما لجاج شىء . . . ومنه أن تعكس المعانى ومع ذلك يكون النظم فى الغاية من الدقة والاتقان كقول سليمان بن داوود القضاعى :

فبينا المرء فى علياء أهوى ومنحط أتيح له اعتلاء
وبينا نعمة إذ حال بؤس وبؤس إذ تعقبه ثراء

ومنه أيضاً أن يجاء بالتمثيل فى أعقاب المعانى فيزداد النظم دقة كقول كثير عزة :

وإنى وتهيامى بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت

ومنه التقسيم وخصوصاً إذا قسمت ثم جمعت كقول حسان بن ثابت :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع(١)

فالمزاوجة بين الألفاظ والعكس والتمثيل والتقسيم أمور ترتفع بنظم الكلام إلى القمة وذلك عندما يقتضيها المقام .

ولا يستطيع أحد أن يدعى أن للنحو علاقة بتلك الأمور بل هى كما قلنا خصائص تتطلبها بلاغة الكلام وأمور وراء النحو والإعراب ... فإذا خلا الكلام من تلك الخصائص لم يجب به فضل وإن كان صواباً .

فبلاغة الكلام لا تعنى التحرز من اللحن وخطأ الإعراب فقط وإنما تحتاج الى أمور تدرك بالفكر اللطيفة ودقائق يوصل اليها بالفهم الثاقب . ولمن يريد المزيد فى إيضاح هذا الأمر نسوق قول الشاعر :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجـــوه كالدنانير

فالاستعارة فى لفظة « سالت » على الرغم من حسنها إلا أنها قد ازدادت ملاحة ولطفا بما توخاه الشاعر فى نظم الكلام من التقديم والتأخير ومن إسنادها إلى الشعاب .

أزل الجارين والظرف عن مكانهما الذى وضعهما الشاعر فيه ، وضعهما فى الموضع الذى كان يجب أن يوضعا فيه خارج البيت وانظره حين يصبح الـــكلام .

« سالت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره » .

ترى ماء البيت قد غار ، وجماله قد ذوى ، وجلاله قد هوى ، وسحره قد بطل .

---

(١) المرجع السابق ٧٤ - ٧٥

فهل كان الحسن والطلاوة والنشوة فى قول الشاعر إلا بسبب أمور توخاها فى النظم من تقديم وتأخير وحذف ، وهل هذه الأمور من الإعراب أو النحو بسبيل(١) .

فإذا ارتقينا إلى سماء القرآن وهو صاحب الدرجة العليا فى البلاغة أى مانطلق عليه اسم البلاغة المعجزة وجدنا أن سر هذا الإعجاز هو مزايا ظهرت فى نظمه ودقائق خواص بدت فى تراكيبه . تأمل مثلا قوله تعالى « رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » تجد المعنى العارى لهذا التعبير المعجز « ضعف بدنى وشاب شعر رأسى » ، فإذا به قد ترك التصريح بضعف البدن إلى الكناية عنه بقوله « وهن العظم منى ، وهى تفيد من المبالغة فى ضعف البدن ماتحار الألباب فى فهمه وسبر غوره . كما أن اختيار كلمة العظم يعطيك بدء التأمل شمول الوهن للعظام فرداً فرداً ... ولو قال « العظام » لجاز أن يتوهم أن المقصود منها المجموع لا الجميع وأن بعض عظامه لم يصب بالوهن بعد(٢) ثم نراه يعدل عن اللفظ الحقيقى « شاب » إلى لفظ مجازى هو « اشتعل » ليفيد المبالغة فى قوة ظهور الشيب ووضوحه ثم أسنده إلى الرأس ولم يسنده إلى الشعر لإفادة العموم والشمول ...

وقد يقع فى الوهم أن المزية فى التعبير القرآنى إنما هى لما اشتمل عليه من كناية أو استعارة وليس الأمر كذلك .

فالكناية والاستعارة وحدهما ليستا سبب المزية والشرف وإنما السبب أمور أخرى روعيت فى النظم فجاء بتلك المثابة وبهذه الروعة . منها كما ذكرنا العدول عن لفظ « العظام » إلى لفظ العظم ، واختصار الكلام بحذف حرف النداء وياء الإضافة ، وإسناد الفعل « اشتعل » إلى الرأس وعدم إسناده إلى

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ٧٨ .

(٢) انظر المصباح المنير — لبدر الدين بن مالك ٣٩ .

الشيب الذى هو له فى الحقيقة فكان إسنادا للمحل وهو يدخل تحت مايطلق عليه البلاغيون اسم المجاز العقلى . وهو أن يسند الفعل إلى غير ماهو له إذا كان ذلك الغير بسبب منه ثم يؤتى بالذى هو له منصوبا على التمييز لبيان أن الإسناد إلى الأول إنما كان من أجل ذلك الثانى .

وقد نتساءل عن سر هذا التحول فى الإسناد وهل لذلك من فائدة ؟ والجواب يكمن فيما ذكرناه سابقاً من إرادة المبالغة والشمول ولإيضاحه نقول إن إسناد « اشتعل إلى الرأس أفاد أن الشيب قد شاع فى الرأس حتى عم كل جوانبه بحيث لم يبق من السواد شىء البتة ، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به ، وهذا المعنى لايتأتى إذا قيل « اشتعل شيب الرأس » ومن ذلك يتضح لنا الأثر الذى يحدثه الإسناد المجازى فى الكلام وندرك مدى ارتباطه بعملية النظم .

وهكذا إذا استعرضنا جميع المباحث البلاغية وجدناها لا تؤدى وظيفتها ، ولا تحقق الغرض منها إلا إذا ارتبطت بالنظم ككل .

فاذا أخذنا مثلا مبحث التقديم والتأخير وهو من أهم المباحث البلاغية وجدناه وثيق الصلة بالنظم بل ربما كان أكثر المباحث البلاغية ارتباطا به ، وإذا كنا قد اتفقنا على أن النظم الجيد لا يكون ولا يتحقق إلا إذا طابق الكلام الحال والمقام ، فإن تقديم بعض الألفاظ على بعض يجب أن يرتبط بالحال والمقام ولإيضاح ذلك نسوق هذين المثالين :

قال تعالى فى شأن القرآن « لا ريب فيه »

وقال فى شأن خمر أهل الجنة « لا فيها غول »

إذا تأملنا نظم الكلام فى الآيتين وجدنا أنه أخر الجار والمجرور فى الأولى وقدمه فى الثانية ، وهذا ما يجعلنا نتساءل هل التقديم يتساوى مع عدم

التقديم ؟ لا شبهة فى أن من يقول بالمساواة بينهما هو من غفل عن إدراك الأسرار البلاغية وعجز عن التمييز بين نظم وآخر وخفيت عليه دلائل التراكيب ومقامات الكلام .

ولإدراك سر التقديم والتأخير فى التركيبين يجب أن نعرف معنى كل تركيب والغرض المسوق له .

فالمعنى فى قوله تعالى « لا ريب فيه » نفى الريب عن القرآن دون التعرض للكتب الأخر باثبات ذلك أو نفيه ، ولو قدم الجار والمجرور هنا فقيل مثلا « لا فيه ريب » فإن المعنى يكون على اختصاص القرآن وحده دون سائر كتب الله تعالى بنفى الريب عنه . ومعنى ذلك ثبوت الريب فى تلك الكتب حاشا لله من هذا الاعتقاد .

ولذلك عندما اقتضى المقام هذا المعنى الثانى قال « لا فيها غول » ، فالآية الكريمة فى وصف خمر أهل الجنة ، والمعنى على تقديم الجار والمجرور هو اختصاص خمر أهل الجنة بتلك الصفة ، وهى أنها لا تغتال العقول ولا تذهبها ولا تؤثر فيها بخلاف خمر أهل الدنيا التى تعتبر تلك الصفات من لوازمها .

وبمثل هذا التفسير والتعليل يجب أن ينظر إلى كل تقديم وتأخير ... وقد ذكر الإمام عبد القاهر ، أنه من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشىء وتأخيره قسمين فيجعل مفيدا فى بعض الكلام وغير مفيد فى بعض ذاك لأن من البعيد أن يكون فى جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى (١)

وكلام الإمام يحتاج إلى نظر ، فلا يمكن القول بأن كل تقديم وتأخير يكون لفائدة لأننا نراه فى كثير من الأحيان وقد أفسد المعنى وأخل بالنظم كما تراه فى قول ذى الرمة :

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ٨٤

كأن أصوات من إيغالهن بنا … أواخر الميس أصوات الفراريج

يريد كأن أصوات أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا .

فأفسد النظم وعقده بسبب التقديم والتأخير ... وكقول أبي حية النميري :

كما خط الكتاب بكف يوما … يهودى يقارب أو يزيل

يريد كما خط الكتاب يوما بكف يهودى يقارب أو يزيل.

كما عيب أيضا قول القائل :

يضحك منها كل عضو لها … من بهجة العيش وحسن القوام
ترفل فى الدار لها وفرة … كوفرة الملط الخليع الغلام

فقد أفسد نظم البيت الثانى بعدم ترتيب ألفاظه وكان ينبغى أن يقول :

كوفرة الغلام الملط الخليع ، أو الغلام الخليع الملط ، فيقدم الموصوف على الصفة ، ولكنه قدم الصفة على الموصوف وهو ردىء جدا فى صنعة الكلام (٢)

فهذا كله كلام غث بارد مستكره لما فيه من تفكك النظم بسبب تقديم وتأخير لا يتطلبه المعنى ولا يقتضيه الحال .

فالخصائص البلاغية لا تحسن لمجرد وجودها فى الكلام وإنما تحسن إذا ارتبطت بالنظم ككل وأدت فى مكانها معنى زائدا يضيف إلى نظم الكلام خصوصية جديدة ترتبط بالغرض والمقام ... فالاستعارة أو التشبيه مثلا لا يحسنان لمجرد أنهما استعارة وتشبيه بدليل أن الكلام قد يشتمل عليهما ويكون رديئا لأن كلا منهما لم يقع موقعه وقد عيب الكثير من استعارات

---

(٢) انظر الصناعتين ١٤٥

أبى تمام لهذا السبب مثل قوله :

تروح علينا كل يوم وتغتدى خطوب يكاد الدهر منهن يصرع

وقوله :

لا تسقنى ماء الملام فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى

وقوله :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

فالاستعارات فى « يصرع الدهر ، وماء الملام ، ولبس الزمان الصوفا » رديئة جدا ولا تضفى على نظم الكلام أو معناه شيئا جديدا يرفع من قدره بل على العكس فقد حطت من قدره ولم تلتئم معه .

كما عيبت بعض تشبيهاته لأنه لم يرتبها الترتيب المناسب فلم يأخذ بالأدنى فالأعلى ، بل بالعكس فقد كان ينحدر من أعلى إلى أسفل ، أو كما يقول الغربيون من الممتاز إلى المضحك ومن هذا قوله :

خلق كالمدام أو كرضاب المسك أو كالعبير أو كالملاب

فعلق ناقدوه بقولهم « الناس يقعون من الدون إلى الأعلى وهذا من الأعلى إلى الدون جعل خلقه كالمدام أو المسك ثم قال : كالعبير أو كالملاب .

وإن أردت ما هو أوضح من ذلك فانظر إلى التشبيه فى قول الرسول صل الله عليه وسلم « الناس سواسية كأسنان المشط ، ثم قارن بينه وبين قول الشاعر الجاهلى :

سواسية كأسنان الحمار فلا ترى لذى شيبة منهم على ناشىء فضلا

فمؤدى التشبيهين واحد غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد راعى الدقة

وأحسن اختيار لفظ المشبه به فجاء كلامه أسلس وأكثر ذوقا وجمالا .

والشاعر وإن كان قد أدى المعنى بالتشبيه إلا أنه لم يحسن اختيار لفظ المشبه به فنقص قدر كلامه ... وذلك دليل على أن اللون البلاغى لا يضفى الحسن على الكلام إلا إذا وقع موقعه وأحسن اختياره .

والكلام عن ارتباط المباحث البلاغية بعملية النظم يحتاج إلى كثير من البحث والدرس عسى الله أن يوفقنا لاستكمال القول فى هذا الموضوع فى بحوث لاحقة إن شاء الله .